عصر ما قبل الأسرات (٣١٠٠ - ٢٦٨٦ ق.م)

يجانب الصواب من يعتقد أن الحضارة المصرية بدأت مع الأسرة الأولى حوالى ٣٠٠٠ ق.م، ومع توحيد القطرين، فقد أثبتت الاكتشافات الأثرية أنه كان هناك أكثر من حضارة مصرية فى أماكن شتى من القطر المصرى تميزت بشخصية متفردة، ترجع كلها إلى عصر ما قبل الأسرات، تلك هى الفترة التى أفرزت فيما بعد حضارة الأسرات الفرعونية، ويُطلق المؤرخون على هذه المراحل الحضارية المصرية «عصور ما قبل الأسرات».

وفى تلك الحقب كان المصرى يعيش فى جماعات أقرب إلى القبائل البدوية من حيث التنظيم الحضارى والاجتماعى بل والفنى أيضًا. وقد تم الكشف عن الكثير من الأدوات الحجرية التى ترجع إلى الفترة الزمنية الانتقالية بين العصر البليوسينى والعصر البليستوسينى (عصور قديمة ترجع إلى آلاف السنين قبل الميلاد والتى اتسمت بأن الإنسان كان قد بدأ فى تطويع الأحجار المنحوتة واستخدامها كأدوات تساعدة فى حياته اليومية)، ثم بدأت تظهر مناظر لصيد الحيوانات ومطاردتها من قبل الصيادين منقورة على جدران الكهوف والصخور، وبدا جليًّا رسومات لحيوانات كانت تعيش بكثرة على أرض مصر مثل الزرافة، والفيل، والنعامة، والخرتيت، وهى حيوانات إفريقية الأصل.

تلك النقوش ميزت العصر الحجرى القديم «الباليوليثيك» (٢٥,٠٠٠ إلى ٦٠٠ ق.م) التى كانت خلالها إفريقيا الشمالية مأهوله وكان الصيد هو المهنة الأساسية ووسيلة الارتزاق وجلب الطعام ولكن كان هذا يحدث بعيدًا عن النهر أو الوادى، ثم فى حوالى ٢٥,٠٠٠ ق.م حدث تغير درامى فى الطقس أدى إلى تصحر الأرض فتحول الإنسان إلى العيش بجوار مصادر المياه، وكانت أغلب المجموعات البشرية المصرية إبان تلك الفترة تعيش على ضفاف نهر النيل.

ولكن يجب أن نؤكد هنا أن التفوق الحقيقى لحضارات ما قبل التاريخ بدأ حوالى ٥٠٠٠ ق.م فى العصر الحجرى الحديث، والذى تم اكتشاف آثاره فى منطقة الفيوم.

وقد تفرد المصرى فى تلك المرحلة بإتقان صنع الأدوات الفخارية والنسيج والسلال، وظهرت الزراعة وأدواتها مثل المنجل، ومطاحن الحبوب مثل القمح والشعير، وشيد الصوامع لتخزين الغلال. ثم أشرقت شمس الحضارة الحجرية النحاسية فى مصر العليا حوالى ٥٠٠٠ سنة ق.م مستخدمة العاج والنحاس فى حياتها اليومية، ويطلق على تلك الحضارة المصرية اسم «حضارة البدارى» (أسيوط الآن)، ثم حدثت الطفرة الحضارية التى نقلت الحضارة المصرية القديمة من عصور ما قبل التاريخ إلى عصور ما قبل الأسرات الفرعونية، وأولها كانت حضارة «العُمرى» وحضارة «نقادة الثانية»، أو «حضارة الجِرزة»، على بعد ٢٦ كم شمال الأقصر على الضفة الغربية لنهر النيل.

وقد تميزت تلك المجموعات البشرية والتى عاشت فى مصر العليا بإتقان صنع الأوانى الجرانيتية، والخزف والصلايات[١] وأدوات الزينة، والنحت المميز على الأختام، والسكاكين واللوحات. وقد أُرخت هذه المراحل الزمنية بالاقتراب من ٤٠٠٠ ق.م. وتميزت أواخر تلك المرحلة بالمجتمعات المنظمة والفن الراقى، وظهرت بجلاء ما يسميه العالم «جان يويوت» بالواقعية الأيديولوجية فى الفن، حيث تم الكشف عن آثار لنقوش فنية وتماثيل لأشخاص بصفات وسمات مخصصة تدل على مكانة هذا الشخص، سواء أكان حاكمًا أو كاهنًا أو إنسانًا ذا مرتبة اجتماعية مرموقة، وكذلك بدأت تظهر بوادر الكتابة الأولية.

وقد أطلق على نقادة فى العصور الساحقة اسم «نوبت» ومعناها «المدينة الذهبية». وقد دلتنا الحفريات الحديثة إلى «حضارة المعادى»، والتى ازدهرت فى الفترة الزمنية الواقعة بين نقادة الأولى والثانية، وتقع على مساحة ١٨ هكتارًا على بعد ٥ كم جنوب القاهرة. وقد تم الكشف فيها عن مدافن بشرية وأوانٍ فخارية وبيوت للمعيشة، ووجد أيضًا الكثير من الأوانى المستوردة من فلسطين ترجع للعصر المبكر إلى الحقبة البرونزية، بل تم الكشف عن قطع خزفية. كل هذه الاكتشافات دلت على وجود علاقات تجارية واجتماعية بين مصر وفلسطين فى تلك العصور القديمة. وقد شاركت أيضًا بشكل فعال حضارات حلوان فى الشمال، والنوبة فى الجنوب، وأبيدوس فى مصر العليا ـ فى وضع حجر الأساس لتلك الأسرات الفرعونية التى سوف ننتقى من حكامها. بينت المصادر المتاحة أنهم الأهم، لاستعراض تاريخهم وإنجازاتهم

---

(١) الصلايات: قطع حجرية ملساء كانت تستخدم فى طحن المواد والأحجار لتحويلها إلى ذرات رقيقة تشبه التراب. أشهر تلك الصلايات هى صلاية «نارمر».